الفصل الثانى

السنة فى مواجهة المستشرقين

للسنة النبوية الشريفة منزلتها فى الدين، ومكانتها الأثيرة فى نفوس المسلمين، فهى : المصدر الثانى للتشريع الإسلامى، بعد القرآن الكريم. وهى المبينة والمفصلة لكتاب الله، قال سبحانه ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤].

وقد اقترن الأمر بطاعة الرسول ﷺ بالأمر بطاعة الله تعالى، فى قوله سبحانه : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٣٢].

ومن مقتضيات الإيمان – إذا حدث تنازع فى أمر – أن يرد الناس الأمر إلى الله ورسوله، وإلى الكتاب والسنة قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء : ٥٩].

كما نص القرآن الكريم – صراحة – على وجوب طاعة الرسول ﷺ والتسليم لحكمه واتباعه، وهذه الطاعة فى حال حياته، بما كان يبين للناس ما نزل إليهم، وبما كان يوضح لهم من معالم الحق والخير، والحلال والحرام. ريفصل الأحكام، ويهدى الناس إلى الصراط المستقيم، وبعد وفاته كذلك، باتباع سننه وإحيائها، والسير على منوالها، لأنه صلى الله عليه وسلم انتقل إلى الرفيق الأعلى، بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين، وأدى الأمانة الإلهية، على منهاج الحق.

وجاء الأمر الإلهى صريحاً بأخذ كل ما أتى به، ودعا إليه، والانتهاء عن كل ما نهى عنه، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشرة : ٧].

وقد وصى الرسول ﷺ المسلمين أن يطيعوه وأن يتبعوا ما أتاهم به من الكتاب والسنة بعد وفاته، ففى هذا عصمة لهم من الذلل، ووقاية من الضلال قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتى»(١).

لهذا كله تلقى الضحابة رضوان الله عليهم السنة الشريفة، وبلغوها إلى من بعدهم جيلا فجيلا، حتى وصلت إلينا نقية بيضاء.

هذا: وأن لدينا يقينا مطلقاً بأن الله سبحانه وتعالى وعد بحفظ القرآن الكريم، وحفظه فعلاً، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

وهذا اليقين يفيء علينا يقينا قريبا منه بأن الله سبحانه قد حفظ كذلك من سنة رسوله ﷺ وأحاديثه كل حقيقي وصادق، ليكون بيانا لكتابه الذى تكفل بحفظه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة : ١٧ - ١٩].

من أجل هذا نرى أن السنة الشريفة قد قيض لها من أسباب التوثيق ما لم يحدث له نظير أبدا فى تاريخ البشر، مثل: علوم الحديث، والجرح والتعديل، وجهاد الأئمة والحفاظ فى سبيل استخلاص الأحاديث الصحيحة.

وعلى هدى الكتاب والسنة: قامت - على أيدى سلفنا - نهضة علمية شاملة، تجاوبت أصداؤها فى مشارق العالم ومغاربه وساعد على نماء النهضة، وازدهارها ما قام به العلماء من توسع فى الرحلات العلمية، والاجتهاد فيها، وتفتقت عبقريات فذة فى كثير من العلوم والمعارف، كانت قائمة على أساس الدين.

وبرغم كل ذلك: فقد تعرضت السنة النبوية الشريفة، لسهام أعداء الدين - بغياً منهم وعدوانا - فحاولوا قديما الدس والتحريف، والكذب والوضع، بدافع

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك.

التعصب السياسى، أو التعصب العنصرى أو ما أحدثه الزنادقة والجهال من القصاص أو ما كان نتيجة الخلافات الكلامية، أو الجهل بالدين مع الرغبة فى الخير، إلى غير ذلك من الأسباب التى يرجع معظمها إلى مكر أعداء الإسلام به، ومحاولتهم أن يلقوا فى محيط الحديث النبوى بالأكاذيب والترهات.

وقد قيض الله سبحانه وتعالى لسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه رجالاً أمناء، صدقوا فى إخلاصهم لله ولرسوله، ونصبوا أنفسهم للذب عن السنة الشريفة، فأفنوا أعمارهم فى التمييز بين الصحيح والباطل، صيانة للسنة النبوية وحفاظا على الإسلام من الدس والتحريف.

وفى سبيل تنقيح السنة وتنقيتها من الوضع: بذل علماء الأمة – من الصحابة والتابعين ومن بعدهم – جهودا مخلصة فوضعوا قواعد الجرح والتعديل، وكان من ثمرة أعمالهم: علم مصطلح الحديث، وهو يشتمل على أدق المناهج العلمية، وأوثق الطرق للتحقيق التاريخى، وأقومها فى التمحيص والنقد والتزموا الإسناد، فلم تظفر أمة من الأمم بما ظفرت به هذه الأمة من الإسناد الصحيح المتصل وعلوه، ونقد الرواية والرواة.

لقد نقدوا الرواة، ودرسوا حياتهم وتاريخهم وأحوالهم: من صدق أو كذب، ووصلوا عن طريق هذه الدراسة إلى تمييز الصحيح من المكذوب.. وكانوا فى حكمهم على الرواة لا يخافون فى الحق لومه لائم، ولا تأخذهم عاطفة، حتى ولو كان الراوى أخا لواحد منهم، أو أبا له.. فهذا زيد بن أنيسة يقول: «لا تأخذوا عن أخى»[1] وهذا على بن المدينى: لا يروى عنه حرف فى تقوية أبيه، بل يروى عنه ضد ذلك[2]، ووضعوا القواعد لتقسيم الحديث، ونقدوا السَّند ونقدوا المتن، وبذلوا غاية الجهد فى التثبت من الأحاديث مهما كلفهم

---

(١) صحيح مسلم شرح النووى جـ ١ ص ٩٩.

(٢) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادى. مخطوط

ذلك، يقول سعيد بن المسيب: إني لأسير الليالى، والأيام فى طلب الحديث الواحد.

وهكذا: كانت همم أئمة الحديث فى تمييز الصحيح من غيره وفى الدفاع عن السنة وحمايتها من أعدائها، وأعداء الإسلام قديما.

وأما حديثا: فقد تعرضت لما تعرضت له فى القديم، إذ شن أعداء الإسلام على السنة حملات مسمومة ومسعورة لا هوادة فيها، وقد تولى كبر هذه الحملات الظالمة المستشرقون ومن تبعهم.

* * *

obeikandl.com

ظاهـــرة الاستشـراق

لقد بدأت أولى مراحل الاستشراق عندما تبوأت الحضارة الإسلامية مكانتها المرموقة، بما لها من خصائص ومقومات، لا تضاهيها حضارة أخرى، فأعجب الغربيون بها، واغترفوا من مناهلها الصافية، بيد أنهم أحسوا أن هذه الثقافة الإسلامية، الأصيلة، وذلك التقدم الحضارى المزدهر يهدد كيانهم، فانبرى بعض الرهبان يدرسون هذه الثقافة، لحاجة فى أنفسهم، وأخذوا يثيرون الشبه المفتراة، ويؤلفون كتبا تطفح بالمثالب المزعومة، ورغم ذلك: فقد ظلت الحضارة الإسلامية مشرقة بفكرها الإسلامى النقى وثقافتها الأصلية، فعجزت حيل أعدائها، وكلت، وضلت مساعى أولئك المبطلين.

ومن ثم، حاولت الكنيسة ضرب هذه الثقافة، واقتلاعها من الجذور، فكانت الحملات الصليبية، بدافع العصبية، وتخليص مهد المسيح من أيدى المسلمين، مستغلين اسم الدين فى سبيل أطماعهم التوسعية وتقويض الحضارة الإسلامية، ولكن تلك الحملات باءت بالفشل، وانهزمت جيوشها.. ومن هنا: بدأت المرحلة الراهنة للاستشراق التى قامت بدافع الأسباب السابقة، وبدافع العدوان والكراهية للإسلام، الذى ينكر عقيدة التثليث والصلب والفداء، فراحوا يختلقون المآخذ، ويتصيدون التهم الملفقة فى تصنع واحتراف، فهم الخصوم المحترفون كما يسميهم المرحوم الأستاذ العقاد[1].

وأيضاً: فمن تلك الأسباب: أن القرآن الكريم كشف عوارهم، وفضح مكرهم، حين بين ما قام به اتباع التوراة والإنجيل من تحريف الكلم عن مواضعه، ولعل هذا هو السبب الأول لحقد المستشرقين على القرآن نفسه[2].

وقد عنى المستشرقون بالتعرف على الإسلام ودراسة أصوله – بعد أن ألفت الجمعيات اليهودية والمسيحية – وكان منهم من تظاهر بالإشادة بالإسلام ليطمئن

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للمرحوم الأستاذ العقاد.

(٢) الإسلام فى نظر المستشرقين للدكتور اللبان.

القارىء لأفكاره، ثم يدس جزئية فى ثنايا بحثه، تحمل السم الخطير للإسلام...
وكان المستشرقون من اليهود قد أقبلوا على الإسلام لأسباب دينية، وهى محاولة إضعاف الإسلام، والتشكيك فى قيمه، وأخرى سياسية، هى: خدمة الصهيونية[1].

ومن هؤلاء المستشرقين: المستشرق اليهودى المجرى «جولد تسيهر»...

وقد افترى هذا المستشرق كثيراً على الإسلام، فحاول التشكيك فى الكتب الستة مرة، وحاول التشكيك فى السنة بأسرها مرة أخرى.

يقول جولد تسيهر: «ومن السهل أن يفهم أن وجهات نظرهم - يعنى المسلمين - ليست كوجهات النظر عندنا، تلك التى لا تجد لها مجالاً كبيراً فى النظر فى تلك الأحاديث، التى اعتبرها النقد الإسلامى صحيحة غير مشكوك فيها، ووقف حيالها لا يحرك ساكنا، ولقد كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة أصولا، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى، فقد جمع فيها علماء من رجال القرن الثالث الهجرى أنواعا من الأحاديث، كانت مبعثرة، رأوها أحاديث صحيحة»[2].

الرد على هذه الفرية:

إن فى هذا الكلام تشكيكا فى قيمة الكتب الستة، وقد بنى ذلك على ادعائه ضعف موازين النقد عند المسلمين، وأن وجهة نظر نقادهم تختلف عن وجهة نظر النقاد الأجانب الذين لا يسلمون بصحة كثير من الأحاديث، ثم رتب بعد ذلك نتيجته الخبيثة وهى: أنه كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة... إلخ.

أما بالنسبة لاختلاف وجهة نظر النقاد الأجانب: فهذا أمر طبيعى.

---

(١) المبشرون والمستشرقون فى موقفهم من الإسلام د/ محمد البهى.
(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام: جولد تسيهر ترجمة د/ محمد يوسف وزملائه.

أولاً :

لأن النقاد المسلمين يؤمنون بالله ورسوله، ويصدقون بكل ما جاء به الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه، فسلموا – بعد التحقيق العلمى – بصحة كثير من أحاديث الغيبيات والعقائد، بخلاف الأجانب الذين لا يؤمنون برسالة الرسول ﷺ .

ثانياً :

إن النقد الإسلامى ، قام على قواعد دقيقة، وأصول ثابتة، لها قيمتها ووزنها العلمى، ولا تعرف الدنيا أدق من موازين النقد التى وضعها المسلمون لقبول الأحاديث أوْردّها، وقد شهد بذلك كثير من الأجانب، وما دام الأمر كذلك : فماذا يضيرنا من اختلاف وجهة نظرهم.

أما ما أورده هذا المستشرق من أمر الكتب الستة، وأن أحاديثها، كانت مبعثرة فضمها مؤلفوها فى القرن الثالث ورأوا أنها أحاديث صحيحة : فتلك شبهة واهية، لا أساس لها، لأنها تؤدى إلى إنكار الجهود المخلصة التى بذلها علماء الإسلام فى القرنين : الأول، والثانى من أجل حفظ السنة وحمايتها. فالسنة : ما كانت مبعثرة، وإنما كان معظمها عمليا يطبقه المسلمون ويهتدون به، ويحفظونه فى قلوبهم الواعية، وكتبهم الصادقة الأمينة... وهكذا : انتشرت السنة من عهد الصحابة والتابعين، وفى القرن الأول والقرون التالية، وظلت محفوظة فى القلوب وفى الصحف، حتى دونت فى الكتب المصنفة فى القرن الثانى الهجرى.

وواضح أن الكتب الستة : قد سبقها فى القرن الثانى كتب مصنفة ومسانيد دونت قبلها، فلما جاء أصحاب الكتب الستة بمناهجهم الدقيقة وشروطهم العميقة، وما التزموه فى مصنفاتهم من نقد السند والمتن والرجال الذين يروون عنهم، ويأخذون منهم... أفاء ذلك علينا يقينا جازما بأن هؤلاء الأئمة الثقات اختاروا هذه الأحاديث التى دونوها فى كتبهم من آلاف الأحاديث التى كانت موجودة عند الأئمة والحفاظ متوخين جمع الصحيح منها.

وفرية أخرى:

للمستشرق المجرى «جولد تسيهر» يقول فيها: «إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للإسلام في القرنين الأول، والثاني، وأنه ليس صحيحاً ما يقال: من أنه وثيقة الإسلام في عهده الأول عهد الطفولة، ولكنه أثر من آثار جهود الإسلام في عصر النضوج»(١).

الرد على ذلك:

هذه الدعوى الزائفة تنهار أمام أدلة النقل من الكتاب والسنة وأمام المنطق العقلي السليم، فإن رسول الله ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلى إلا بعد كمال الدين، وتمام نعمة الإسلام، ومن أواخر ما نزل عليه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي»(٢).

وقد تضافرت لحفظ السنة المقاييس الثابتة، والمناهج الدقيقة التي لم تتوفر لأي ثقافة أخرى، ولم تعرف الدنيا أدق من هذه الموازين العلمية التي وضعت لقبول الرواية أو ردها.

وعلى هذا الأساس: تلقى الخلف عن السلف سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، حتى وصلت إلينا صحيحة ثابتة.

وأما زعم هذا المستشرق أن أغلب الأحاديث من وضع المسلمين نتيجة للتطور: فهو كذب وافتراء، يدحضه ويرده ما ثبت بالواقع والتاريخ من الأحاديث الصحيحة الوافرة، التي نقلت عن النبي ﷺ، وحفظها الصحابة، وأخذها عنهم ثقات الرواة: طبقة بعد طبقة، وعصرا بعد عصر، حتى وصلت إلينا نقية سليمة، وتلقاها الأئمة على مر العصور بجهاد مشكور، فنفوا عنها كل كذب، وبالغوا في

(١) دراسات إسلامية: جولد تسيهر.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك.

التثبت والحيطة، وسطروها على صفحات قلوبهم الواعية، وصدورهم الأمينة، ودونوها فى صحفهم وكتبهم الصحيحة التى التزموا فيها بنقد السند والمتن، مستجيبين لنبيهم عليه الصلاة والسلام الذى أمرهم بالصدق، وحذرهم من الكذب، ودعاهم إلى المحافظة على حديثه الشريف، وحذرهم من التهاون فيه.

افتراء آخر :

وهناك افتراء آخر، خلاصته: أن الاعتراف بصحة الحديث أمر شكلى، يقول جولد تسيهر: «قد شعر المسلمون فى القرن الثانى بأن الاعتراف بصحة الأحاديث يجب أن يرجع إلى الشكل فقط، وأنه يوجد بين الأحاديث الجيدة الإسناد كثير من الأحاديث الموضوعة، وساعدهم على هذا ما ورد من الحديث: «سيكثر الحديث عنى فمن حدثكم بحديث فطبقوه على كتاب الله فما وافقه فهو منى قلته أو لم أقله» هذا هو المبدأ الذى حدث بعد قليل عند انتشار الوضع» أهـ.

الرد على ذلك:

أنه لم ينقل عن أحد من المسلمين أن الاعتراف بصحة الحديث أمر شكلى، أو أن من بين الأحاديث الجيدة الإسناد الكثير من الأحاديث الموضوعة، وإنما كل ما نقل عنهم هو ما رآه البعض بالنسبة لأحاديث الآحاد من أنها تفيد الظن، وهذا مبالغة فى الحيطة والتثبت.

وأما ما ادعاه هذا المستشرق فى تدعيم دعواه من حديث: «سيكثر التحديث بعدى... إلخ» فقد نقد الأئمة هذا الحديث وبينوا أنه موضوع فكيف ينهض دليلا على القاعدة الخطيرة التى وضعها هذا المغرور؟ وقد قام المحدثون بمناهجهم وشروطهم التى ميزوا بها بين الصحيح وغيره، وبين الصالحين للرواية وغير الصالحين، كما ردوا بعض الأحاديث التى لم تنطبق على رواتها شروطهم، وردوا بعض أحاديث الصالحين، «ولم يكتفوا فى الرواة بالصلاح وحسن السيرة، حتى يجمعوا إلى ذلك الحفظ والضبط واليقظة التامة[1] أهـ.

---

(١) الحديث والمحدثون : د/ محمد أبو زهو.

وقال الإمام مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته ولا من كذاب يكذب في حديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به»[1] فهم يشترطون فيمن يأخذون عنهم ألا يكون الواحد منهم سفيها به حمق وعدم اتزان، أو أن يكون عابدا ولكنه لا يزن الأمور بدقة، ولا صاحب بدعة يدعو إليها، هذا مع الضبط والفهم.

❊ ❊ ❊

(١) مالك: حياته وعصره للشيخ: محمد أبو زهرة.

obeikandl.com

دعوى أن السنة منقولة عن الأمم الأخرى

ويطعن جولد تسيهر فى السنة من زاوية أخرى، فيزعم: أنها منقولة عن الأمم الأخرى، وقال: «هناك جمل أخذت من العهد القديم، والعهد الجديد، وأقوال الربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة، وتعاليم من الفلسفة اليونانية وأقوال من حكم الفرس والهنود... كل ذلك أخذ مكانه فى الإسلام عن طريق الحديث»(١).

الرد على ذلك:

فى هذه الشبهة يورد المستشرق: أن الإسلام أخذ من اليهودية والنصرانية والفلسفات الأخرى، وكيف يتأتى هذا والمسافة الزمنية بعيدة جداً بين الإسلام وغيره من الأديان السابقة؟ والرسول أمى لم يتل كتابا من قبل، ولاخط بيمنه، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٨ - ٤٩].

نعم: توجد أشياء من أخبار الرسل السابقين فى الكتاب وفى السنة، وهناك تشابه بين الإسلام وغيره فى بعض الأمور ولكن ليس معنى هذا: أن الإسلام أخذ من السابقين، أو قلد سواه، وإنما ذكرت أخبار الرسل لأنهم أخوة اتحدوا فى الهدف وهو: التبليغ عن الله الواحد، ويصدق بعضهم بعضاً.

والقارىء للقرآن والسنة يرى: الفرق شاسعاً بين ما جاء فيهما من التعاليم العامة الشاملة، والتشريعات والأحكام والآداب، وبين ما جاء فى تعاليم التوراة والإنجيل، وحكم الفرس والهنود.

أما اتفاق الكتب السماوية فى الأصل الأول وهو التوحيد أو فى مكارم

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٥١.

الأخلاق: لأن الدعوات السماوية جاءت كلها بالإسلام توحيداً خالصاً، وأخلاقا فاضلة، فلا ضير أن يتفق الإسلام مع غيره فى مثل ذلك، فطابعه العام -- بعد ذلك - أنه الدين العالمى بأصوله وتشريعاته - وبمصادره من الكتاب والسنة فهو غنى عن الأخذ من الأديان السابقة أو الفلسفات المختلفة.

وقد وجدت محاولات عديدة لتسلل الإسرائيليات وغيرها إلى الإسلام، ولكن العلماء المجاهدين الذين سهروا للدفاع عنه ورابطوا حول أصوله، حالوا دون هوى المغرضين وكيف يتصور أن الإسلام نقل عن غيره وهو الدين الشامل الكامل الذى اشتمل على ما لم يشتمل عليه ما سبقه؟!.

والناظر إلى صحف اليهود الآن: لا يرى فيها شيئاً عن الجنة والنار، ولا الدار الآخرة، فكيف يأخذ منها؟.

وواضح من كل ما سبق، ومن جهود المسلمين سلفاً وخلفاً: أن السنة النبوية حفظت من كل دخيل وموضوع، وكيف لا: وهى المبينة للقرآن الكريم، الذى تكفل الله تعالى بحفظه وجاء بها الرسول الأمين وحيا وصدقا: ﴿ **وما ينطق عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

* * *

اعتراف بعض المستشرقين بصحة بعض السنة

اعترف أحد المستشرقين بصحة قسم كبير من السنة النبوية التى حفظت فى الصدور ودونت فى الكتب بدقة بالغة، وعناية لا نظير لها، وهو: «دوزى».

وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكذوبات تتخلل كتب الحديث، فتلك - كما يقول: طبيعة الأشياء نفسها - بل الكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التى لا يرقى إليها الشك، «ونصف صحيح البخارى على الأقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلوا فى النقد، مع أنها - أى الروايات الصحيحة - تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها»[1]. أهـ

هذا هو ملخص الدعوى كما أوردها الدكتور صبحى الصالحى، مشيراً إلى أن عبارة دوزى فى الأصل أشد وقاحة من أن يوردها.

الاجابة على ذلك:

نرى هنا: أن هذا المستشرق حاول أن ينصب الشرك حول بحوثه، حيث مال إلى الاعتراف بصحة قسم كبير من السنة النبوية بقصد غير شريف، وغرض غير خالص. للعلم، إنما لمحاولة التجريح والنقد، وهذا هو دأب المستشرقين، يموهون الأمور، ويصطنعون الانصاف المزيف للإسلام، ليطمئن الباحث إلى أفكارهم، ثم يعمد الواحد منهم فيدس السموم للإسلام وأصوله.. ولكن لم يعد خافيا عنا اعتراف المستشرقين بصحة بعض السنة النبوية، أو إشادتهم ببعض محاسن الإسلام. فإننا لا ننتظر منهم اعترافا بشىء من ذلك، ولا إطراء لبعض مبادىء الإسلام ومحامده، فنحن المسلمين أوثق تراثاً وأدرى بحقائق ديننا وخصائصه وأصوله، ولدينا من الثقة واليقين ما لا يدع مجالا لتمويه المستشرقين، وتحريفهم الكلم، وتلبيسهم الحقائق مع الأباطيل، فالحق أحق أن يتبع.

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه د/ صبحى الصالحى.

* وقد بذل رجال السنة جهوداً مخلصة وأمينة فى المحافظة على الحديث الشريف من الدس والتحريف، وفى سبيل تثبتهم كانوا يتذاكرون الأحاديث فيما بينهم لمعرفة ما يأخذون منها وترك ما ينكرونه ، وكانوا على حيطة بالغة، وهمم عالية ويقظة تامة، بحيث يحفظون الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة، خشية أن يختلط الأمر عليهم، وحتى يستطيعوا التمييز بين الصحيح وغيره بدقة فائقة، روى أبو بكر بن الأثرم: أن أحمد بن حنبل رأى يحيى بن معين بصنعاء فى زاوية، وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، فإذا أطلع عليه إنسان كتمه، فقال له أحمد بن حنبل: تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس وتعلم أنها موضوعة؟ فلو قال ذلك قائل: أنك تتكلم فى أبان ثم تكتب حديثه على الوجه؟ فقال: رحمك الله يا أبا عبد الله أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعة، حتى لا يجىء بعده إنسان فيجعل بدل ابان ثابتاً، ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك، فأقول له: كذب، إنما هو عن معمر عن أبان لا عن ثابت[1]، ووضعوا علامات يعرف بها الاسناد الموضوع كأن يكون الراوى معروفاً بالكذب، ويتفرد برواية الحديث ولا يرويه ثقة غيره أو أن يقروا ضعفه، أو أن تكون هناك قرينة مانعة من صحة الحديث، كأن يروى الراوى عن شيخ لم يثبت لقاؤه به، أو ولد بعد وفاته، أو لم يدخل المكان الذى ادعى سماعه فيه، أو معرفة حال الراوى وبواعثه النفسية، ودرسوا مولد الرواة ووفاتهم وإقامتهم ورحلاتهم، وقسموهم إلى طبقات، إلى غير ذلك، يقول سفيان الثورى: «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ».

* * *

(١) الجامع لأخلاق الراوى.

ادعاء المستشرقين أن المحدثين لم يعنوا بالنقد الداخلى

ومن مزاعم المستشرق «شاخت»: ما ادعاه -- جهلا وبهتانا - بأن المحدثين اعتنوا بالنقد الخارجى، أى من ناحية الرواة، ولم يعتنوا بالنقد الداخلى، وهو نقد المتن.

الإجابة عن ذلك:

لقد تصدى أئمة الحديث لكل من النقد الداخلى والخارجى والناظر فى علم مصطلح الحديث يرى ذلك واضحاً تمام الوضوح، وإلى أى مدى عنوا ببيان الشذوذ والإعلال فى السند أو فى المتن، وقالوا: «إن العلة قد تكون فى المتن كما تكون فى السند».

ومع هذا: فقد تبع بعض الكتاب ما قاله المستشرقون. فقال أبو ريه: «وقد تعرض كثير من أئمة الحديث للنقد من جهة المتن إلا أن ذلك قليل جداً بالنسبة لما تعرضوا له من النقد من جهة الإسناد».

والحقيقة: أن مثل هؤلاء المستشرقين ومن تبعهم من الكتاب لو أمعنوا النظر، ووجدوا كيف كان حكم أئمة الحديث على الأحاديث صحة وضعفا - لوجدوا النقد موجها للمتن كثيرا، كما يوجه إلى السند، بل فى كثير من الأحيان يكون النقد للسند أو الرواة مرجعه فيما نقله أو رواه من مناكير أو موضوعات. فيقول أئمة الحديث مثلاً: «حديث منكر» أو «باطل» أو «شبه موضوع» أو «موضوع» ويقولون فى الراوى: «يحدث بالمناكير» أو يقولون: «صاحب مناكير» أو «عنده مناكير» أو «منكر الحديث» ومعظم ذلك راجع إلى جهة المعنى... يقول الأستاذ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى: «ولما كان الأئمة قد راعوا فى توثيق الرواة النظر فى أحاديثهم، والطعن فيمن جاء بمنكر، صار الغالب ألا يوجد حديث منكر إلا وفى سنده مجروح أو خلل، فلذلك: صاروا إذا

استنكروا الحديث نظروا فى سنده، فوجدوا ما يبين وهنه فيذكرونه وكثيراً ما يستغنون بذلك عن التصريح بحال المتن، انظر موضوعات ابن الجوزى وتدبر، تجده: إنما يعمد إلى المتون التى يرى فيها ما ينكره ولكنه قلما يصرح بذلك، بل يكتفى غالباً بالطعن فى السند. وكذلك كتب العلل، وما يعل من الأحاديث فى التراجم، تجد غالب ذلك مما ينكر متنه، ولكن الأئمة يستغنون عن بيان ذلك بقولهم: «منكر» أو نحوه أو الكلام فى الراوى[1]. أهـ.

وأما ما يظنه البعض من أن العناية بالسند أكثر من المتن: فليس على حقيقته، وإنما لأن السند تتعدد أحواله... ومع ذلك: فقد وضع العلماء الصفات التى يجب توافرها فى صحة المتن. وحددوا العلامات الدالة على الوضع، ومن أهمها: ركاكة المعنى، وفساده، ومخالفته للقرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى، أو المخالفة للوقائع التاريخية المقطوع بصحتها أو أن يصدر الحديث من راو تأييدا لمذهبه، أو يشتمل الحديث على إفراط فى الثواب العظيم على العمل الصغير أو المبالغة فى الوعيد الشديد على الأمر البسيط، أو يتضمن الحديث أمراً من شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله لوقوعه بمشهد عظيم ثم لا يشتهر، ولا يرويه إلا واحد أو ما يصرح بتكذيب جمع المتواتر وهكذا.

كما كان لذوق المؤمن مجاله فى النقد، ومعرفة الصحيح من المتون وغير الصحيح، وهذا الذوق كان متفقاً مع قوانين الرواية، يقول الربيع بن الخيثم: «أن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه به، وأن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها». ويقول ابن الجوزى: «الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم، وينفر منه قلبه فى الغالب».

ومما سبق: يتضح لنا ما وضعه علماء الحديث من القواعد الهامة التى عرفوا بها الحديث الصحيح من الموضوع، ووجهوا جهودهم إلى نقد السند والمتن على السواء.

---

(١) الأنوار الكاشفة للأستاذ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى.

وعلى بساط البحث العلمى نرى: أن تلك الدعاوى الزائفة التى حاول بعض المستشرقين أن يثيروها لا أساس لها ولا وزن. وأن هؤلاء الطاعنين إنما وجهوا تلك المطاعن لحاجة فى أنفسهم: ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾ [الصف: ٨].

وإذا كان هذا العدوان الظالم من بعض المستشرقين المغرضين فإن هناك بعضا من المستشرقين عرفوا الإسلام ووقفوا على خصائصه وأسلم بعضهم، وكتب عن الإسلام بإنصاف، منهم الأستاذ: محمد أسد «ليوبولد فايس»، والأستاذ: عبد الرشيد الأنصارى «روبرت ولذى» والأستاذ: ناصر الدين «رينيه» وغيرهم... ومن دفاع: «توماس كارليل» عن الرسول ﷺ قوله: «وليست الرسالة التى أداها إلا حقا صراحاً، ولا كلامه إلا صوتا صادراً من العالم المجهول»[1].

* * *

(١) مفتريات على الإسلام للأستاذ: أحمد محمد جمال.

obeikandl.com

السنة الشريفة وافتراءات المبشرين والمستشرقين

عرفنا ما للسنة النبوية الشريفة من أصول ثابتة، وقواعد محكمة، نقلت بها إلينا، ورويت على أساسها.

فمهما حرف المحرفون، أو افترى الأعداء والمبشرون فإنها - بحمد الله - مصونة من كل عدوان، محوطة بعناية فائقة، متميزة بقوانين رصينة، تتصل بالمتن والإسناد.

ومع هذا: فقد اتجهت سهام الأعداء إليها، فى سلسلة الحروب القتالية والثقافية، التى شنوها على الإسلام والمسلمين فى مختلف المجالات والميادين.

ولقد قام التبشير بدور خطير فى هذا المضمار، وكان الذى حدا بأوروبا إلى هذا اللون من العدوان، أنها فشلت فى الحروب الصليبية أن تصل إلى ما تريد عن طريق السيف والمنازلة.

ولذا لجأت إلى التبشير كنوع خطير من أنواع الحروب الصليبية الجديدة.

وأخذ التبشير أشكالا متعددة وأساليب متنوعة، فمن التعليم مرة، إلى الطب مرة أخرى، إلى الإذاعة والصحف والمجلات.

وقد استخدموا المدارس والمستشفيات، ليتقنع التبشير بنشر العلم، أو الطب المجانى، أو الخدمات الاجتماعية، وكلها وسائل تلتقى عند غاية واحدة هى:

السيطرة على الثقافة الدينية، ووضع الكتب والرسائل التى تطفح بالمثالب، والطعن فى الإسلام والمسلمين والتجنى على أصول هذا الدين وفى مقدمتها: القرآن الكريم والسنة الشريفة.

ولنتناول هنا بعض الافتراءات التى افتراها بعض المبشرين على السنة الشريفة.

يقول المبشر الأمريكى «جب»: «الإسلام مبنى على الأحاديث أكثر مما هو مبنى على القرآن، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء، وصار أشبه بصبيرة طومسون، وطومسون هذا رجل أمريكى، جاء إلى لبنان فقدمت له صبيرة فحاول أن ينقيها من البذر، فلما نقى منها كل بذرها لم يبق فى يده منها شيء»(١). أهـ.

ومن افتراءاتهم كذلك قولهم: وبينما كان محمد يعظ، كان المؤمنون يدونون كلماته على عجل.

ففى الافتراء الأول: محاولة عدوانية ظالمة، للتجنى على السنة النبوية الشريفة التى جاءت مفسرة للقرآن الكريم، ومفصلة لمجمله وموضحة لمبهمه، ومبينة لأحكامه.

ونلاحظ: أنه يريد أن يصور السنة وكأنها مجموعة من الأخبار التى إذا نقيت لم يبق منها شيء.

وفى هذا افتراء متبجح، ومحاولة إجرامية للنيل من السنة النبوية فإن السنة الشريفة قد ثبتت بأدق طرق الرواية، والنقل الصحيح، ولقد كان الإسناد الصحيح المتصل خصوصية لهذه الأمة، ليس لغيرها من الأمم.

قال ابن حزم: «نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبى ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل. وأما مع الإرسال والإعضال: فيوجد فى كثير من اليهود، لكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً، وإنما يبلغون إلى شمعون ونحوه.

قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق فقط، وأما النقل بالطريق المشتملة على كذاب أو مجهول العين فكثير فى نقل اليهود والنصارى.

وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن لليهود أن يبلغوا إلى صاحب نبى

---

(١) التبشير والاستعمار د/ مصطفى خالد، د/ عمر فروخ.

obeikandl.com

أصلاً، ولا إلى تابع له، ولا يمكن للنصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص» أهـ.

ولقد نواه القرآن الكريم بذكر الإسناد فى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾.

فقد روى الحاكم وغيره عن مطر الوراق فى هذه الآية قال: إسناد الحديث». وقال ابن المبارك: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»(١).

والإسناد من خصائص هذه الأمة، قال أبو على الجيانى: خص الله تعالى هذه الأمة بثلاثة أشياء، لم يعطها من قبلها: (الإسناد، والأنساب، والإعراب).

وعنى أئمة الحديث: بنقد السند والمتن، ومراعاة العدالة والضبط، فلا يؤخذ الحديث من أهل البدعة، ولا من سفيه، ولا ممن عرف بالكذب فى أحاديث الناس.

يقول الإمام مالك: «لا يؤخذ العلم عن أربعة، ويؤخذ عمن سواهم: لا يؤخذ من مبتدع يدعو إلى بدعته، ولا من سفيه يعلن بالسفه، ولا ممن يكذب فى أحاديث الناس، وإن كان يصدق فى أحاديث النبى ﷺ، ولا ممن لا يعرف هذا الشأن».

وكانت همم أئمة الحديث وحفاظه عالية، وعنايتهم بانتقاء الأحاديث الصحيحة فائقة فهذا هو: الإمام أحمد بن حنبل يقول: «انتقيت «المسند» من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث».

ولدقتهم فى تمييز الصحيح من غيره، كان بعض أئمة الحديث يحفظ الصحيح من الأحاديث، ويحفظ أيضاً غير الصحيح حتى لا يلتبس على الناس هذا بذاك.

وحتى لا يأتى من يخلط بينهما أو يحاول تلبيس الأمور فميزوا بذلك الصحيح من السقيم.

---

(١) رواه مسلم.

فقد كان الإمام البخارى يحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح.

وصنف الإمام مسلم «صحيحه» من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة. وكتب الإمام أبو داود خمسمائة ألف حديث انتخب منها ما ضمنه كتاب «السنن».

وهكذا: بهذه الدقة الفائقة، والجهود المخلصة قيض الله تعالى لحفظ السنة الشريفة رجالا أمناء، وحفاظاً ثقات، أفنوا أعمارهم، فى جمع السنة الصحيحة وتدوينها، وحفظها من لدن صدورها من فمه الشريف صلوات الله وسلامه عليه، إلى أن وصلت إلينا نقية صحيحة، خالصة بيضاء، فى كتب الصحاح التى أشرقت على دنيا الناس، فكان منها صحيحا البخارى ومسلم، اللذان تلقتهما الأمة الإسلامية بالقبول.

وغير ذلك من الكتب الصحيحة والسنن والمسانيد والمعاجم والمستدركات والمستخرجات، وما إلى ذلك، مما هو مدون فى كتب السنة الصحيحة.

فادعاء أعداء الإسلام والمبشرين والمستشرقين وأبواق الكفر والإلحاد ادعاء كاذب، وعدوان ظالم، وتجن على الإسلام وعلى مصادره الأصلية، التى تمثلت فى كتاب الله تعالى، وفى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وأما الشبهة الأخرى التى حاول بعض المبشرين أن يلصقوها بالسنة الشريفة، فهى قولهم: «وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون يدونون كلماته على عجل، إنهم هنا يريدون أن يثيروا حول السنة أنها لم تدون تدويناً دقيقاً، يتسم بالروية والأناة والتثبت، وهى شبهة لا أساس لها من الصحة فما عرفت البشرية على مر أدوار الحياة تاريخاً من التواريخ، أو علما من العلوم نقل بأدق وأعظم مما نقلت به السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وما كان المؤمنون يدونون أحاديث الرسول ﷺ وكلماته على عجل، كما يدعى أعداء الإسلام وخصوم السنة الشريفة، وإنما كانوا فى غاية التثبت والحيطة،

يتثبتون من الراوى والمروى أو السند والمتن تثبتاً قوياً، فما اطمأنوا إليه قبلوه، وما لم يطمئنوا إليه طلبوا عليه شاهداً، وما لم تقم البينة على صدقه ردوه.

وكان تثبتهم قائماً على ميزان النقد العلمى الصحيح. ومنع الصحابة الرواة من أن يحدثوا بما يعلو على فهم العامة لأن فى هذا مدعاة لتكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه، ومدعاة للخطأ والشك فى الدين، فامتنعوا عن ذلك خشية أن يستغل أصحاب الأهواء ظاهر النصوص لصالح بدعهم وأهوائهم.

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنَّ عبد الله بن مسعود قال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» رواه مسلم.

ومن أمثلة التثبت عن الصحابة ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: كنت فى مجلس من مجالس الأنصارى إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت: فقال ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع».

فقال: والله لتقيمن عليه بينة، أمنكم أحد سمعه من النبى ﷺ؟

فقال أبى بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم. فكنت أصغر القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبى ﷺ قال ذلك، فقال عمر لأبى موسى: أما إنى لم أتهمك. ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ، وقد سار على سنة التثبت التابعون، ومن جاء بعدهم وعنوا بالأسانيد والنقد العلمى الدقيق.

ولما كان الصحابة متفاوتين فى العلم، فلم يكن عند الجميع ما قاله الرسول ﷺ، فقد بدأت الرحلات العلمية، فقام الصحابة والتابعون بالرحلات العلمية إلى كثير من البلاد حتى تميز البعض بكثرة الرحلات والانتساب إلى أكثر من بلد، وكانت الرحلة سبيلاً إلى طلب الحديث وضبطه والتثبت منه.

وهكذا: كانوا يتثبتون فى أخذ الحديث وروايته وضبطه وتدوينه.

وبموازين النقد العلمي النزية، تلقوه خلفا عن سلف، حتى وصل إلينا فى هذه الدواوين المعتمدة، والجوامع الواسعة.

أفبعد كل هذا: يتقول أعداء السنة من المبشرين والمستشرقين ومن على شاكلتهم، محاولين إلصاق الشبه بالسنة، ومحاولة إضعاف الروح الدينى عند كثير من المسلمين، بغياً منهم وعدواناً ولحاجة فى أنفسهم؟

وإن الحديث النبوى الصحيح الذى بين أيدينا اليوم، فى صحيح البخارى وفى صحيح مسلم، وفى غيرهما من الكتب الصحيحة لأكبر شاهد على عناية المسلمين بسنة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

وكان من عناية الله سبحانه وتعالى، أن قيض لسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه أولئك الحفاظ الأمناء، والأئمة العدول الضابطين الذين نقشوها على صفحات قلوبهم الأمينة، واستوعبتها ذاكرتهم الحافظة التى استظهرت الكثير منها بشىء منقطع النظير.

كما دونوها فى صحائفهم الصادقة، وكتبهم المعتمدة، فجاءت فى ثوبها الناصع المشرق، مصونة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

* * *

عدوان على السنة الصحيحة والرد عليه

لقد قيض الله تعالى لسنة نبيه ﷺ رجالا أمناء، وحفاظاً مجاهدين، أفنوا الأعمار فى سبيل الحفاظ على السنة الشريفة... وكان لهم دفاعهم عنها ورد السهام دونها.

ولكن حملات أعداء الإسلام، ومحاولتهم الغزو فى صور عديدة كانت تتشكل فى كل جولة بما يلائم عصرها.

فمن الفرق الضالة الخارجة عن الإسلام... إلى الأعداء الظاهرين... إلي المستشرقين... إلى المنتظمين فى صفوف الغزو الفكرى... إلى من جرفتهم سيول المدنية المتحللة، وجروا وراء الأقلام الإباحية والمعادية للإسلام والسنة.

ولكن رجال السنة، كانوا وما زالوا بحمد الله لكل الأعداء بالمرصاد. يجاهدون وينافحون.

ولقد راح البعض، فى هذه الآونة يردد طعون سابقيه من المستشرقين والكتاب المأجورين، والشيوعيين الذين يدفعون بهؤلاء فى الميدان لحرب الإسلام، ممثلاً فى تراثه، وفى السنة الشريفة.

ومن ذلك: بعض تلك الموجات الطائشة التى تتدافع على صفحات بعض الجرائد اليومية، فى بعض البلاد الإسلامية والعربية.

وقد تناولت الرد على ذلك فى بعض الصحف، ورددت على من أنكر حديث: «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ثم يطرحه، فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء» لقد ادعى بعض المنكرين أن الحديث غير صحيح، وأنه يتعارض مع الآية الشريفة: ﴿ **وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ** ﴾ [الحج: ٧٣].

فبالله: أى منطق هذا الذى يريد أن يحرف الكلم عن مواضعه، ويئول القرآن على حسب هواه، وبما يؤيد ما يريد؟

أيصل الأمر إلى هذا الحد؟ أيناقض القرآن الحديث؟

أهذا ما يريده القرآن: أن للذباب خاصية السلب؟. لو أن قائل هذا القول، كلف نفسه قليلاً من النظر إلى بقية الآية، أو كان ممن يعلمون أسباب النزول، لعرف أن الآية لا تخص الذباب، وليست القضية فيه، وإنما هذا مثل ضربه الله لمن يعبدون الأصنام، بأن الأصنام لا تقدر على خلق الذباب مع صغره، ولو اجتمعوا لخلقه، ثم بين غاية جهلهم بأن هذه التماثيل لا تقدر على خلق أقل الأحياء، ولا تقوى على مقاومته وتعجز عن دفعه عن نفسها، واستنقاذ ما يختطفه منها، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ [الحج: ٧٣].

هذا هو المعنى، كما يفهم من الآية، لا كما حاول بعض الكتاب أن يلبس الأمور، وأن يخرج بالقرآن من غير مراد الله تعالى. إلى مراد نفسه، ليقوى رأيه، ويخرج من ذلك بأن هذه الآية تناقض الحديث، ونقول: إنها ليست دليلاً أبداً على ما يريدونه، وخروجهم بمراد القرآن إلى هذه الصورة افتراء جديد، وإفك مفترى، وحسابهم على الله.

وأما عن حديث «الذباب» فإسناده صحيح... فقد رواه الأئمة: أحمد والبخارى وأبو داود وابن ماجه والبيهقى وغيرهم.

وليعلم المنكرون أن هذا الحديث لم يستدركه أحد من الأئمة على البخارى، وإنما هو مما جاء على شرطه فى أعلى درجات الصحة.

ومعلوم أن صحيح البخارى قد اتفق علماء الأمة الإسلامية على تلقيه بالقبول. وقد تتبعت سند الحديث فى الكتب التى أخرجته فكانت النتيجة: أنه قد رواه من الصحابة: أبو هريرة، وأبو سعيد الخدرى، وأنس بن مالك... ورواه عن كل واحد من الصحابة مجموعة من التابعين... وهكذا حتى وصل إلى الأئمة الذين أخرجوه فى كتبهم، وجميع الروايات متصلة وصحيحة، بل فى

Obeikandi.com

أعلى درجات الصحة، زادت على عشرين طريقا، هذا من جهة سند الحديث.

وأما من جهة المتن: فبرغم ما اكتشفه بعض المهرة من الأطباء من وجود مادة قاتلة للميكروب، فإننا لن نعول على هذه الاكتشافات الحديثة، لأنها لم تعجب بعض الكتاب، ولأنها ليست وحدها الدليل على صحة متن الحديث.

وإذا ما تأكدنا من اتصال الحديث وصحته، فلسنا بحاجة إلى رأى طبيب أو كاتب أو مكتشف، بعد أن وضح لنا أن الحديث قاله الرسول ﷺ.

فهل ندع ما جاء من مشكاة النبوة، ونركن إلى رأى البشر فى تضاربه وخطئة وصوابه؟

وأننا لنرى رأى العين أكثر الناس يأكل مما سقط عليه الذباب، ويشرب منه. ولا يصيبهم شيء إلا فى القليل النادر. ومن ذا الذى يكابر فى هذا؟

ومع هذا: فنحن لا نشك فى ضرر الذباب الشديد، لا سيما أثناء وقوع الوباء العام.

وليس معنى هذا: أن نتهاون فى شأنه، أو نتساهل بالنسبة له فى حياتنا. فالإسلام دين النظافة... وقد حرص الإسلام على الوقاية، والبعد عن مواطن التهلكة، ويجب علينا نظافة الثوب والبدن والمكان والطعام والشراب.

ولكن لأن الذباب مما يتعذر دفعه كثيراً... وتتعذر الوقاية منه فى كثير من الأحوال، فإذا دعت الضرورة ووقع فى الطعام فإن الحديث الشريف، يكشف لنا عن خاصية كانت غامضة، وهى ما تحتوى عليه الذبابة من مادة مضادة لكثير من الأمراض فإن نحن غمسنا الذبابة وخرج السائل قتلت المادة الموجودة فيه تلك الجراثيم المرضية... والعقل لا يرفض ذلك.

نعم: قد يستغربه، والغرابة ناشئة عن عدم المعرفة بمادته، ولأن النفس تعافه، وليست ناشئة من استحالة وجود ما فيه من خصائص.

والذين حكموا عقولهم فى الحديث، لا نراهم يفرقون بين ما استحال

تصوره، وما يستغرب تصوره، وهذا ناشيء من غرورهم العقلى الذى لا يجدى فتيلا.

بل إن بعض المنكرين يدعى أن الحديث يتنافى مع المكتشفات الحديثة من الميكروبات... والعجيب: أنهم آمنوا بتلك المكتشفات أكثر من إيمانهم بالغيب، وبما قاله المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى... ولكنهم لا يصرحون، لقد حاولوا إنكار السنة الصحيحة حباً فى الجرى وراء كل جديد وبراق.

وأغرب من هذا: أن كثيرين من الناس يؤمنون بخرافات الأوربيين، وينكرون حقائق الإسلام أو يتأولونها، ومنهم من يؤمن بخرافة استحضار الأرواح، وينكر وجود الملائكة بتأويله العصرى الحديث، وليستمع المنكرون والمكابرون إلى قول ابن قتيبة: «أن من حمل أمر الدين على ما شاهد، فجعل الذباب لا يعلم موضع السم، وموقع الشفاء واعترض على ما جاء فى الحديث مما لا يفهمه، فإنه منسلخ من الإسلام مخالف لما جاء به الرسول ﷺ وما درج عليه الخيار – من صحابته – والتابعون.

ومن كذب ببعض ما جاء به رسول الله ﷺ، كمن كذب به كله»[1].

وقال الخطابى: «تكلم على هذا الحديث من لا خلاق له، فقال: كيف يجتمع الشفاء والداء فى جناحى الذباب؟

وكيف بعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناح الشفاء وما الجأه إلى ذلك.

قال: وهذا سؤال جاهل أو متجاهل، فإن كثيراً من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة، وقد ألف بينها وقهرها على الاجتماع وجعل منها قوى الحيوان، وأن الذى ألهم النحلة البيت العجيب الصنعة للتعسيل فيه، وألهم النملة أن تدخر قوتها أوان حاجتها، وأن تكسر الحبة نصفين لئلا تستنبت، لقادر على إلهام الذبابة أن تقدم جناحا وتؤخر الآخر.

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٩٠ جـ ١ المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣٢٦هـ.

وقال ابن الجوزى: أن النحلة تعسل من أعلاها وتلقى السم من اسفلها... والحية القاتل سمها تدخل لحومها فى الترياق، الذى يعالج به السم.

وذكر بعض حذاق الأطباء: أن فى الذبابة قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه، وهى بمنزلة السلاح له فإذا سقط الذباب فيما يؤذيه تلقاه بسلاحه، فأمر الشارع أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله تعالى فى الجناح الآخر من الشفاء، فتتقابل المادتان فيزول الضرر، بإذن الله تعالى[1]. أهـ.

إن الإسلام ينادى بالنظافة، ويدعو إلى وقاية الصحة وهذا الحديث ليس فيه ما يناقض ذلك وإنما فيه درء الضرر الذى يترتب من وجود المادة السامة بأخرى مزيلة للسم، وهذا لمن لا تعاف نفسه ذلك، ولمن يحتاج للطعام أو الشراب لضرورة وحاجة.

وعلماء الطب والطبيعة وغيرهم يعترفون بأنهم ما وسعوا كل شيء علما، ولم يحيطوا بدقائق كل العلوم والمعارف... واكتشافات العلم كانت ومازالت تتوالى من اكتشاف شيء بعد آخر.

فبأية عقيدة وإيمان: ينفى هؤلاء المنكرون أن يكون الله تعالى أطلع رسوله عليه الصلاة والسلام على أمر لم يصل إليه علماء الطب وعلماء الطبيعة بعد.

هذا: وخالق الطبيعة ومدبرها هو واضع الشريعة، وقد علم سبحانه أن كثيراً من عباده يكونون فى ضيق من العيش وقد يكون قوتهم قليلا من اللبن أو العسل وحده... فلو أمروا بإراقة كل ما وقعت فيه الذبابة لأجحف ذلك بهم... فأغاثهم بهذا الحديث... فمن خالف هواه وطبعه فى استقذار الذبابة فغمسها تصديقاً لله ولرسوله دفع الله عنه الضرر.

وإذا كان العلم يثبت لقوة الاعتقاد تأثيراً بالغاً، فما بالنا باعتقاد منشؤه الإيمان بالله ورسوله»[2] أهـ.

---

(١) من فتح البارى جـ١ ص ١٩٧ الطبعة الخيرية.

(٢) من الأنوار الكاشفة للأستاذ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى.

واليوم: إذ نقدم للقراء بعض هذه الردود على تلك الآراء الظالمة للسنة الصحيحة، فإنها امتداد لدفاع سابق نشرنا فيه الرد على بعض الآراء الجامحة والظالمة، وهى بمشيئة الله ردود موصولة الجهاد لما ينشر حاليا، وما يحاول إذاعته ونشره بعض الذين وقعوا فريسة الغزو الفكرى، ومن غرهم الجرى وراء نغمة التجديد والتطوير.

ونحن نناشد كل الأقلام المجاهدة الشريفة، أن يشرعوا أقلامهم المسلمة فى وجه كل عدوان على السنة، والوقوف فى مواجهة التيارات المعادية للإسلام، ورد تلك الموجات الفكرية التى تحاول النيل من السنة الصحيحة.

وننادى جميع المسلمين والمثقفين أن يقفوا على تراثهم وأن يتعلموا من سنة رسولهم صلوات الله وسلامه عليه كل ما وسعهم، وألا يهملوا كتب شروح السنة الصحيحة، وفيها ما يفى بحاجة الفكر الإسلامى ويرد سهام كل متطاول إلى نحره... والله يهدى إلى سواء السبيل.

* * *